مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد (32) العدد الأول (يونيو 2018)

فَلْسَفةُ الرَّؤيةِ الاسْتِشْرَاقيّةِ حَوْلَ مَفْهُومِ التَّجْدِيدِ وَتَدَاعيَاتِهَا عَلَىَ الْعَالَمِ الإِسْلامِيِّ

د. هيثم عبد الرحمن عبد القادر علي عوض

جامعة الأزهر

dr.hytham2020@gmail.com

الملخص

يعد مفهوم التجديد واحدًا من أكثر المفاهيم تداولاً خلال هذه الفترة، وأعتقد أنه سيستمر لسنين قادمة؛ فلقد أصبحت المفردة الأكثر شيوعًا في لغة البرامج السياسية والحزبية، ثمت محاولات استشراقية وأخرى تغريبية، تحاول تفسير المنطلقات المفاهيمية لمفهوم التجديد وتوصيفاته، وكأنه يحمل في ذاته حلولاً سحرية لكل مشاكلنا المعقدة.

ولأن التجديد في الفكر الإسلامي لا يهدف إلى الانسجام، أو التوافق مع الأفكار الأخرى، ولا إلى درء شبهات التحجر والجمود، أو اختراع نظريات جديدة تفصِّل الشريعة على مقاس العصر، لكي تلاحق تطورات الزمن ولا تكون متخلفة عنه ـ لأن الشريعة هي المقياس، وليس متطلبات العصر ـ وإنما يتمثل فعليًّا، في إعادة الاكتشاف والاستنباط من جديد لسد تلك الحاجات، وعلاج ما تعانيه الأمة من أزمات، والسعي الحثيث لوضع لبنة في صرح الحضارة الإسلامية، دون التجني على التراث إرضاءً للحاضر؛ ذلك لأن التضحية بالشريعة من أجل إرضاء الإنسان الجديد، أو التكيف مع الأفكار الجديدة، أو توظيف النص والتراث لخدمة الواقع، هي موازنات لا تتوافق مع ثوابت الدين، وخصائص الديمومة فيه، وعليه فقد برز إلى الحياة الإسلامية المعاصرة اتجاه استشراقي يحاول نسف التأصيل الشرعي لمفهوم التجديد في الفكر الإسلامي، وابتداع مفهوم آخر يتوافق مع الرؤية الغربية، لا يرى بأسًا في التحرر من الضوابط العلمية، ولا حرجًا في مخالفة القواعد المنهجية، ولا ضيرًا في الأخذ

بأساليب التحديث والتطوير التي تهدف إلى طمس معالم الهوية الإسلامية، تحت مسميات غربية أُقْحِمَتْ علينا بفعل التوصيات الاستشراقية، كـ"الإصلاح الثقافي" أو "التحديث الاجتماعي" أو "التجديد الإسلامي"، أو "تجديد الخطاب الديني" إلخ، فما هي فلسفة الفكر الاستشراقي حول مفهوم التجديد؟، وما هي أبرز المناهج والأهداف ؟ وما أثر تلك الرؤية وتداعياتها على العالم الإسلامي؟ هذا ما سأحاول الإجابة عليه من خلال الصفحات التالية وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: مفهوم التجديد في الرؤية الاستشراقية.
المبحث الثاني: مناهج المستشرقين في معالجة قضية التجديد في الفكر الإسلامي.
المبحث الثالث: أهداف المستشرقين من دراسة قضية التجديد في الفكر الإسلامي.
المبحث الرابع: تداعيات الرؤية الاستشراقية لمفهوم التجديد على العالم الإسلامي.

المبحث الأول
مفهوم التجديد في الرؤية الاستشراقية

يعد مفهوم التجديد واحدًا من أكثر المصطلحات شيوعًا في المعاجم الغربية، فقد ورد بمعاني متعددة منها: إعادة التنظيم الجديد، والاستعادة، وإعادة التأهيل، والإحياء، والتنشيط، والترميم، والتطوير، والتحديث، والنهضة والصحوة إلى آخر تلك المعاني التي تدور حولها وفي ركابها [(1)].

أما في الاصطلاح: فقد تنوعت التعاريف تبعًا لتنوع الفنون والعلوم، فلكل فن تعريفه، ولكل علم توصيفه، غير أن الذي يعنينا هو مفهوم التجديد الفكري بصفة خاصة، والذي أشارت إليه الموسوعة الأمريكية بقولها: أنه يعني ((إعادة النظر في الفن والتكنولوجيا والفلسفة والنظم السياسية، والقدرة على إحداث

(1) The Oxford Dictionary of Synonyms, p.p. 1432, 1440, 1441.

الهياج الفكري بإعادة النظر في دور البشر تجاه الكون))[1]، أو كما جاء في الموسوعة البريطانية: ((هو تلك المحاولات التي يبذلها مجموعة من المفكرين، لتقديم حقائق الدين المسيحي في قوالب المعرفة المعاصرة))[2]؛ وهو ما أعيد صياغته بطريقة أخرى ذكرها صاحب الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، حيث يقول: ((والتجديد في الفكر الديني الغربي هو وجهة نظر في الدين مبنية على الاعتقاد بأن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية، على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة، واعتبار أن الدين صحيح ما دام لا يتعارض مع التطور))[3].

على أن الفكر الغربي الحديث يُعْرِّفُ مفهوم (الإصلاح) طبقاً لرأي (هنتنجتون)[4] بأنه: (تغيير القيم، وأنماط السلوك التقليدية، ونشر وسائل الاتصال والتعليم، وتوسيع نطاق الولاء بحيث يتعدى العائلة والقرية والقبيلة ليصل إلى الأمة، وعلمنة الحياة العامة، وعقلانية البنى في السلطة، وتعزيز التنظيمات المتخصصة وظيفيًّا، واستبدال مقاييس العزوة (أي المحاباة) بمقاييس الكفاءة، وتأييد توزيع أكثر إنصافاً للموارد المادية والرمزية)[5].

ولعل من يتأمل تلك المفاهيم والمصطلحات يدرك خلوها من الضوابط أو الضمانات التي تؤمن سلامة العملية التجديدية، لذلك فإننا نعتبرها مفاهيم مطاطية، ظهرت في ظلها العديد من الحركات الإصلاحية الغربية، كعملية

(1) Encclopedia Of American Education, Harlow G. Unger, Vol.3, P. 935, Third Edition, 2007, Library of Congress, New York.

(2) The Encyclopedia Britannica, Jacob E. Safar, vol 22, p.1-133, vol 15, p640, Edition 15TH, Chicago, Amerecan.

(3) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، د/ مانع الجهني، ج2، ص1002، ط4، 1420هـ، دار الندوة العالمية ـ السعودية.

(4) (صامويل فلبس هنتنجتون) (1927 ـ 2008م)، أستاذ العلوم السياسية، اشتهر بتحليله للعلاقة بين العسكر والحكومة المدنية، أحدثت كتاباته العلمية جدلاً واسعا على مستوى العالم، وخاصة كتابيه " صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي ". راجع: الإسلام والغرب آفاق الصدام، تأليف صموئيل هنتنجتون، ترجمة مجدي شرشر، ص4، ط1، 1995م، مكتبة مدبولي، القاهرة ـ مصر.

(5) النظام السياسي لمجتمعات متغيرة، صموئيل هنتينغتون، م س ذ، ص121.

إحياء لفلسفة الطبيعيين، والعودة إلى التراث الغربي القديم، أو كرد فعل على تسلط الكنيسة، ورجالاتها وموقفهم المتصادم مع روح العلم ومكتشافاته الحديثة، حتى إنه ليمكننا القول بأن مفهوم "التجديد" لم يظهر لدى الغرب لم ظهر إلا كنتيجة لصراع حادٍ بين الكنيسة من جانب، وسلطة المعرفة والعلم والعقل من جانبٍ آخر، مما دفع الأخيرة للاتجاه نحو تجاوز كل النظريات الدينية والتيارات الفكرية الحديثة تحت مسمى التجديد، لتتسع بذلك مجالات التجديد لديه، فتشمل كافة جوانب الحياة المادية والفكرية والروحية والأخلاقية للمجتمع، فلا شيء ثابت، بل كل شيء عرضة للتبديل والتغيير وفق المقتضيات العصرية أو الضروريات الاجتماعية.

إن الناظر في تاريخ الفكر الغربي يعلم أنه نشأ في بيئة يونانية، واتخذ مسارًا يختلف اختلافًا جوهريًّا عن المسار العربي الإسلامي؛ ذلك لخضوعه لقانون الصراع بين الأضداد الذي تمثّل ـ على سبيل المثال ـ في الصراع بين فلسفة أفلاطون المثالية(1)، وفلسفة أرسطو المبنية على التجربة والحس، ثم تطور الخلاف وظهر في بدايات العصر الحديث متمثلاً في الصراع بين المذهب العقلي لديكارت(2)، والمذهب التجريبي لجون لوك، ثم أفرز المجتمع

---

(1) المثالية: قوام المثالية لدى الفلاسفة يتمحور في اتجاهين أو مذهبين: المذهب الأول القديم: وهو المذهب الأفلاطوني الذي انبعث من أبي الفلسفة القديمة سقراط، وثبتت دعائمه على يدي تلميذه أفلاطون، ويرى هذا المذهب أن الأفكار و"المعقولات" أو "المثل" موجودة وجودًا أسمى من الوجود المحسوس، لأنها هي المبادئ النموذجية الأصيلة للأشياء. والمذهب الثاني: هو المذهب الكانطي، الذي مهد له أبو الفلسفة الحديثة ديكارت في مبدئه المشهور "الكوجيتو" (أفكر فأنا إذن موجود) ثم شيده "كاتط" على أساس من نقد العقل في جوانبه الثلاثة: النظر والعمل والذوق، والمثالية الأفلاطونية أبعد محاولة لإثبات الله، والمعرفة فيها ذات طابع سماوي، لأنها هي معرفة مصدر الأشياء ومدبرها، أما المثالية الكانطية فتركز عنايتها في المعرفة الإنسانية، والمثال فيها مندمج في الأشياء الخارجية غير متعال عليها. راجع: رواد المثالية في الفلسفة الغربية، د/ عثمان أمي، ص7، 8، ط1، 1967م، دار المعارف، مطبعة معهد دون بوسكو، الإسكندرية ـ مصر.

(2) العقلانية: مذهب فكري فلسفي يزعم أن الاستدلال العقلي هو الطريق الوحيد للوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود، بدون الاستناد إلى الوحي الإلهي أو التجربة البشرية، وأنه لا مجال للإيمان بالمعجزات أو خوارق العادات، كما أن العقائد الدينية يمكن، بل ينبغي أن تختبر بمعيار عقلي، وهنا تكمن علله التي تجعله مناوئاً ليس فقط للفكر الإسلامي، بل أيضاً

الأوروبي الفلسفة المادية التاريخية التي وجدت في الصراع بين الأضداد القانون الصارم الذي يوجّه مسيرة التاريخ في الاعتماد على الأصول اليونانية والرومانية، وبالرغم من ذلك فإن الحضارة الرومانية لم تنجب عالمًا واحدًا ذا شأن؛ حيث كان السواد الأعظم من الناس ملاكين وجنودًا وتجارًا وأصحاب حرف ورجال دين، وباقي الناس عبيد، وكان العلم قاصرًا على رجال الدين الذين أقاموا مدرسة كنسية همها واهتمامها ملكوت الرب لا ملكوت العقل[1].

وعليه فإذا ما إذا نظرنا إلى دعوة التجديد التي نادى بها المستشرقون فإننا نجد ورائها المعتقدات الدينية، والأيديولوجيات الفكرية الغربية التي أثّرت وبشكل ملحوظ في مواقفهم تجاه الديانات الأخرى، وخاصة الإسلام، فحركات الإصلاح التي نشأت في الغرب بطرفيها النصراني واليهودي، ونظرية التطور التي نادى بها دارون، كانت سببًا قويًّا ومباشرًا في نشوء المذاهب والتيارات الفكرية الغربية الإصلاحية المعاصرة، كالعلمانية والعصرانية والعقلانية وحركات التنوير إلخ . . ، والتي كان لها أكبر الأثر في تناول المستشرقين لقضايا الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي بالنظرة الغربية، فتراهم يتناولون الحلول الإصلاحية في الغرب على أنها حلول مسلم بها في الفكر الإسلامي مع علمهم باختلاف الفكر الإسلامي الذي ينتسب إلى الإسلام، عن الفكر الغربي الذي تحرر من طغيان الكنيسة وتسلطها، ذلك لأن مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي يختلف اختلافًا جذريًّا عما يريده المستشرقون [2].

لكل دين سماوي صحيح. راجع: الموسوعة الميسرة، مراجعة مانع الجهني، ج2، ص796، ط4، 1420هـ، دار الندوة العالمية للنشر، الرياض ـ السعودية.

(1) مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الإسلام، د/ أحمد سعيدان، ص58، 1998م، طبعة عالم المعرفة، بالكويت.

(2)إن التجديد الذي نقصده ـ نحن المسلمون ـ هو الذي يراد به : إنهاض الهمة، وبعث الروح فيمن أصابه الخمول، وتنشيط من لحقه الوهن في العزيمة والتراخي والكسل، وذلك بإحياء السنة، وطمس البدعة، إنه الفهم الصحيح لمبادئ الإسلام وقيمه، والعمل على إبراز البدائل، وتقديم الحلول والعلاج لأمراض الأمة المزمنة، على أساس استيعاب القديم، وتقويمه، وإعادة قراءته، وإدراك تحديات الحاضر من أجل استشراف متطلبات المستقبل. الاجتهاد والتجديد في الشريعة الإسلامية، الخواصي العقاد، ص71-72، دار الجيل، ط1، 1998م ـ لبنان.

إن التجديد الإسلامي الذي يقصده المستشرقون هو ذلك التغيير والتبديل الذي يعتمد على المناهج الغربية النقدية، بحيث لا يسلم من هذا التغيير آية قرآنية أو حديث نبوي، أو عقيدة دينية، أو قضايا غيبية، أو قواعد نحوية، أو غير ذلك من القضايا الأصيلة للنظام الاجتماعي والاقتصادي الإسلامي، دون اكتراث للتراث القديم، أو الفكر الإسلامي القويم، فالتجديد في نظرهم يتجاوز القديم إلى الجديد دون ذكر أو أثر لهذا القديم، ومن هنا عالج المستشرقون قضية النص القرآني والتفسير واللغة العربية بالتجديد الاستشراقي، فطبقوا المنهج النقدي على النص القرآني، وطبقوا المنهج العقلي في التفسير، وتجلت دعواتهم في تجديد العربية إلى طمس القواعد النحوية والصرفية والعدول عنها إلى العامية.

المبحث الثاني

مناهج المستشرقين في معالجة قضية التجديد في الفكر الإسلامي

المنهج مشتق من الفعل نهج، يقال: نهجت الطريق: سلكته، ونهج الأمر: وضح، وطريق نهج: بيّن واضح، والمنهاج كالمنهج [1]، وقد قال الله تعالى:

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[2].

والمنهج في الاصطلاح هو: ((مجموعة خطوات متتالية تؤدي بالباحث إلى هدف محدد، هو القانون الذي يفسر الظواهر تمهيدًا للاستفادة منها)) [3]، وقيل هو: ((العقد الذي ينظم حبات البحث ومسائله، وهو النظام الذي يمنع من انفراط الأفكار والآراء والنظرات وتبعثرها، وهو العقل الذي يعقل القضايا والمسائل، ويسير بها في نظام إلى الهدف المنشود، فالمنهج للباحث هو البوصلة التي تمنعه من أن يضل، وهو النظام الذي يمنعه من الفوضى، وهو النور الذي يهديه الطريق))[4].

(1)راجع: لسان العرب، لابن منظور، ج2، ص382، مادة نهج، والمعجم الوسيط، ص995.

(2) سورة المائدة: آية رقم (٤٨).

(3)مناهج البحث بين التنظير والتطبيق، د/ حامد طاهر، ص3، ط1، د.ت، دار النصر، القاهرة ـ مصر.

(4) البحث الأدبي ومناهجه، د/ جودة مصطفى، ص3، 9، د. م، د. ت، دار الأمل، القاهرة ـ مصر.

جدير بالذكر: أن المناهج الاستشراقية التي اعتمدها المستشرقون في دراساتهم وأبحاثهم حول الإسلام وقضاياه كثيرة جدًا، غير أننا سنقتصر في هذا المبحث على أبرز ثلاثة مناهج تم استخدامها من قبل المستشرقين في معالجة قضية تجديد الفكر الإسلامي وهي على النحو التالي:

أولاً: منهج النقد التاريخي.

إذا ما تطرقنا إلى مناهج المستشرقين في معالجة قضية الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي فأول وأهم ما يقابلنا منها؛ هو: "منهج النقد التاريخي" والذي يقصد به: "فن تمييز جيِّد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده"(1)، بأحد طريقين: أحدهما: الحكم، ويراد به، الحكم على الأشياء بالحسن، أو الرداءة، أو الجمال، أو القبح، والآخر: التفسير، أو التحليل، ويراد به، تحليل وتجزئة النص لإدراك أبعاده، وبلوغ أعماقه(2)، ويعَّرف المصطلح كاملاً بأنه: ((عبارة عن ترتيب وقائع تاريخية أو اجتماعية وتبويبها وترتيبها))(3)، بهدف جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، والمعارف المتعلقة بموضوع الدراسة، ثم يتلخص دور الباحث في إرجاع الظواهر أو القضايا الفكرية وردها إلى أصولها.

وفي إطار التطبيقات الاستشراقية لهذا المنهج الغربي، بغرض إصلاح الفكر الإسلامي وتجديده، يحدثنا "رودي بارت"(4) قائلاً: ((فنحن معشر

(1) المعجم الوسيط، تحقيق د/ إبراهيم أنيس وآخرون، ج2، ص944، ط2، معجم اللغة العربية، القاهرة ـ مصر.

(2) مقدمة في النقد الأدبي، د/ علي جواد الطاهر، ص339، ط1، 1979م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ـ لبنان.

(3)راجع: مناهج وأساليب البحث العلمي النظرية والتطبيق، د/ ربحي مصطفى، د/ عثمان غنيم، ص37، 38، ط1، 1420هـ/ 2000م، دار صفاء، عمان ـ الأردن.

(4) رودي بارت (1901-1983م)، مستشرق ألماني، ولد لأسرة يكثر فيها القساوسة المسيحيون، درس الدراسات العربية في جامعة توبنجن، ومنها حصل على الدكتوراه، من أبرز أعماله العلمية، ترجمة القرآن إلى اللغة الألمانية، إلى جانب العديد من الرسائل الصغيرة عن القرآن الكريم منها رسالة: "محمد والقرآن"، كما قام بإلقاء العديد من المحاضرات. راجع: المستشرقين، بدوي، ص62، مرجع سابق.

المستشرقين، عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية والعلوم الإسلامية، لا نقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة(1) العالم العربي الإسلامي، بل على العكس، نحن نبرهن على تقديرنا الخاص للعالم الذي يمثله الإسلام ومظاهره المختلفة، فنحن بطبيعة الحال لا نأخذ كل شيء ترويه المصادر على عواهله دون أن نعمل فيه النظر، بل نقيم وزنًا فحسب لما يثبت أمام النقد التاريخي، أو يبدو وكأنه يثبت أمامه، ونحن نطبق على الإسلام وتاريخه، وعلى المؤلفات العربية التي نشتغل بها، المعيار النقدي نفسه الذي نطبقه على تاريخ الفكر عندنا، وعلى المصادر المعروفة لعالمنا نحن))(2).

فإذا كان "رودي بارت" يحاول في عبارته السابقة أن يثبت براءته هو وأقرانه من أي اتهام بعدم الموضوعية، فإن نهاية عبارته أكبر دليل إدانة على عدم الموضوعية؛ لأن تطبيق المنهج التاريخي، أو أية معايير أخرى على فكر ما، ليس معناه صلاحية هذا المنهج، أو تلك المعايير على سائر أفكار الأمم، ولكن تمحور الأوربيين حول الذات، جعلهم يرون في أنفسهم المعيار الأوحد الذي يقاس عليه الآخرون، وهذا هو نتاج التعصب وتضخم الذات الأوروبية.

ونظرًا لما سببه هذا المنهج القاصر من تغييرٍ للحقائق، وردٍ للحوادث والظواهر إلى غير أصولها، لم يقم المستشرقون بتطبيقه على الفكر الإسلامي وحسب، بل عمدوا إلى الأصل الأول للتشريع، والمصدر الأول للفكر الإسلامي وهو القرآن الكريم، فكتب " تيودور نولدكه"(3)، كتابه (تاريخ القرآن)(4)،

---

(1) ضعة: من الوضاعة والشيء الوضيع، ويقصد بها الانحطاط وهو خلاف الرفعة.

(2) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، بارت، ترجمة مصطفى ماهر، ص10، مرجع سابق.

(3) تيودور نولدكه (1836-1931م)، مستشرق ألماني، يلقب بشيخ المستشرقين الألمان، حيث يعد المستشرق الأول المؤسس لمنهج النقد التاريخي على القرآن الكريم في رسالته التي حصل بها على درجة الدكتوراه الأولى عام 1856م، من أكاديمية باريس للعلوم الشرقية، له كتاب في النحو عنوانه " في نحو العربية الفصحة"، وأبحاث في علم اللغات السامية، راجع: موسوعة المستشرقين، بدوي، ص595، مرجع سابق.

(4) تاريخ القرآن، تيودور نولدكه، ترجمة جورج تامر، ط4، 2000م، دار نشر جورج ألمز، زوريخ، نيويورك. .

وكتب "كانون إدوارد سل"(1) (تطور القرآن التاريخي)(2)، وكتب "آرثر جيفري"(3)، (تاريخ النص القرآني)(4)، ثم توسعوا في تطبيقات المنهج على الجوانب العقدية والتشريعية والتاريخية الإسلامية، فَأَلَّفَ المستشرق اليهودي "جولد زيهر"(5) كتابه (العقيدة والشريعة تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الإسلام)(6)، وكتب "جفري" رسالته بعنوان: (بحثًا عن محمد التاريخي)(7)، على غرار بحث، كتبه مستشرق آخر، تحت عنوان: (بحثًا عن يسوع التاريخي)، وخلاصة الرأي في بحثه هذا، أنه يَنُمُّ عن جهل فاضح، وكذب متعمد، حيث تبدو فيه الصبغة المسيحية أمرًا ملحوظًا، إذ جاء فيه أن النبي محمدًا ﷺ كان يخبر أصحابه أنه بعد ثلاثة أيام من موته سيرفع إلى السماء، فلما

---

(1) كانون إدوارد سل: ابن وليم جون سل، حصل على الدكتوراه في اللاهوت من جامعة أدنبرة، وتولى إحدى المدارس الإسلامي في الهند (1880- 1905م)، من آثاره التطور التاريخي للقرآن (1898)، والإسلام في أفريقيا(1912)، المستشرقون، العقيقي، ج2، ص77.

(2) Historical Development Of The Quran, Canon Sell, 4th Ediyion, 1923, Hamilton,Kent, London – England.

(3) أرثر جيفري: مستشرق استرالي عُين أستاذًا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، حقق كتاب المصاحف للسجستاني، وله نصوص عن القرآن الكريم وقراءاته دراسات وافرة أشهرها (القرآن) والآداب السامية، والشرق الحديث 1932م، المستشرقون، العقيقي، ج3، ص158.

(4) المصاحف، لابي داود السجستاني، تقديم وتصحيح آرثر جفري، مقدمة الكتاب، ط1، 1936م، المطبعة الرحمانية، القاهرة ـ مصر.

(5) جولد زيهر (1850-1921م)، مستشرق يهودي الديانة، مجري الجنسية، انتدبته الحكومة للقيام برحلة إلى سوريا (1873)، ثم تركها إلى فلسطين، ومصر، حيث تضلع من العربية على شيوخ الأزهر؛ واشتهر بتحقيقه في تاريخ الإسلام وعلوم المسلمين وفرقهم وحركاتهم الفكرية تحقيقًا فريدًا في بابه، فعد من أعلام المستشرقين، من أهم آثاره: آداب الجدل عند الشيعة بالألمانية، والأساطير عند اليهود، والإسلام بالألمانية، والعقيدة والشريعة في الإسلام، ثم نقله إلى العربية د/ محمد يوسف وآخرون. راجع: المستشرقون، العقيقي، (40/3، 41، 42).

(6) العقيدة والشريعة، جولد زيهر، ترجمة محمد يوسف وزميلاه، ط2، 1959م، دار الكتب الحديثة، القاهرة ـ مصر.

(7) The Quest of the Historical Muhammad, Arthur Jeffery, The Muslim World, vol. 16: p 48 - 327, 1926.

مات بقي بدون دفن حتى يرفع جسده، ولكنه لم يرفع حتى تعفن جسده، وأخذت الكلاب تنهش منه(1).

كما قام "هامتلون جب"(2)، بتطبيق هذا المنهج من خلال كتابه (وجهة الإسلام)، وكان مما قاله في ضرورة التزام هذا المنهج، ودعوته لأبناء العالم الإسلامي لتطبيقه قوله: ((فعلى العالم الإسلامي أن يبحث أو بالأحرى أن يُخلق من جديد ويُبنى على أسس خاصة ناتجة عن نقد تاريخي خاص لفجر الإسلام من طريق اللجوء إلى عناصر قد طُبقت في المناهج الغربية، وما على العالم الإسلامي إلا أن يعيش من جديد مجمل التطور والإصلاح الذي صادف الفكر الغربي الحديث)) (3).

وبالنظر في إشكاليات هذا المنهج عند دراسة النص القرآني كأهم مصدر للفكر الإسلامي، يتبين لنا خطأ التطبيقي الاستشراقي؛ لأن الباحثين بصفة عامة، والتاريخ بصفة خاصة يدركون قيمة استخدام هذا المنهج في دراسة التاريخ، سواء أكان ذلك بمعناه العام، (والذي يتمثل في دراسة الماضي بمختلف أحداثه وظواهره) أو بمعناه الخاص، (والذي يعني البحث في مجمل حياة البشر الماضية، وما تشتمل عليه من علاقات بين الأحداث والمتغيرات في الفترات الزمنية المختلفة)، حيث تقوم مرتكزات هذا المنهج على دراسة الماضي من ظواهر وأحداث، لتحديد التغيرات والتطورات المؤثرة، والتي تعمل على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل، وعلى الرغم من أن المنهج التاريخي يقدم وصفًا دقيقًا للماضي، إلا أنه لا يقوم على الملاحظة المباشرة للظواهر والأحداث، ولا يعتمد على التجربة العلمية للوصول إلى الحقائق، فمصدر المعرفة فيه هو الآثار والسجلات التاريخية، وأحيانًا الناس أو الأفراد، وقد يميل هؤلاء الأفراد إلى التحيز أو المبالغة في وصف الحقائق وتصويرها؛ لذلك فإن النتائج

(1) صور استشراقية، د/ عبد الجليل شلبي، ص27، 1978م، سلسلة البحوث الإسلامية، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة ـ مصر.

(2) هامتلون جب: مستشرق إنجليزي، ولد في مدينة الإسكندرية بمصر 1895م، وتوفي 1971م ، تخصص في اللغات السامية، عُين في جامعة لندن أستاذًا لتاريخ العرب، وكان أول إنتاجه كتاب (فتوح العرب في آسيا الوسطى)، و(الأدب العربي)، وله (الاتجاهات الحديثة في الإسلام). راجع: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمن بدوي، ص174، 175، ط3، 1993م، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.

(3) وجهة الإسلام نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي، هامتلون جب، ص175، ط1، 1935م، المطبعة الإسلامية، ـ مصر.

والمعرفة التي يتم التوصل إليها من خلال تطبيق المنهج التاريخي تكون غير دقيقة بالمعايير العلمية الحديثة؛ لأنها غير كاملة وتستند إلى أدلة وبراهين جزئية.

ولذلك فإن اعتماد المستشرقين لهذا المنهج في عملية تجديد الفكر الإسلامي اعتماد مرفوض؛ نظرًا لأن المستشرقين أنفسهم كانوا وسيلة لجمع المعلومات، أضف إلى ذلك خضوع غالبيتهم لأغراض محددة تتعلق بالدوافع الاستشراقية، التي تتنوع تبعًا لتنوع كل مدرسة وباحث، وعليه فإن تطبيق مثل هذا المنهج لا يحقق الموضوعية المرجوة منه، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن مثل هذا المنهج قد يصلح في دراسة اليهودية والمسيحية، اللتين نشأتا في بيئة دينية حفلت بالعديد من المؤثرات الخارجية ـ كالبابلية(1)، والوثنية(2)، ونحوهما ـ مما كان له الأثر الكبير في تغيير وتحريف النصوص الدينية (التوراة والإنجيل)، ومن ثمَّ بإمكان الباحث التاريخي أن يرد مكوناتهما ـ اليهودية والمسيحية ـ إلى عناصرهما الأولى؛ لأن موضوعاتهما مادية وتاريخية، بخلاف دراسة المصادر المكونة للفكر الإسلامي، ذات الاستقلالية الفكرية والجوانب الروحية التي تميزها عن غيرها من الديانات الغربية، ولذلك كان تطبيق هذا المنهج الغربي على الفكر الإسلامي كفيلاً برد النتائج المستخلصة؛ لعدم صلاحية تطبيق هذا المنهج أصلاً، وإذا ما أضفنا إلى ذلك، قصور الفهم ـ الاستشراقي ـ تجاه حقيقة الإطار الشرعي لمفهوم الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، والعلاقة التي تربط بين الإصلاح والفكر الإسلامي، لأدركنا أن تطبيق مثل هذا المنهج وغيره من المقاييس والمناهج، لا بد أن ينتهي حتمًا إلى نتائج خاطئة.

---

(1) الحضارة البابلية: هي الحضارة الفارسية القديمة القائمة في بلاد (سومر) ما وراء النهر، والتي تقع بين نهري دجلة والفرات وجنوب بغداد بالعراق، ما بين القرنين 18 ق . م، و6 ق.م، وبابل دولة أسسها حمورابي 1763ق .م، وهزم آشور عام 1960ق.م، وأصدر قانون شريعة حمورابي. راجع: التشريعات البابلية، عبد الحكيم الزنون، ص14، ط1، 2000م، دار علاء الدين، دمشق.

(2) الوثنية: تطلق على مختلف العقائد التي لا تفرد الله سبحانه وتعالى بالتوحيد، وتنسب إلى عبادة الوثن من أحجار وأصنام، وقد وصف اليونان القدماء "الإغريق" بالوثنية، كما وصفت بها المجتمعات العربية قبل الإسلام، مع الاختلاف في المدى والفهم.

وحتى لا نتهم بالتجني على المستشرقين فإننا نسوق بعضًا مما انتهى إليه المستشرق المجري "جولد زيهر" حول تطبيقه للمنهج النقدي التاريخي للإسلام، حيث يقول: ((علينا أن نلقي الضوء على العوامل التي أسهمت في التكوين التاريخي للإسلام، ذلك بأن الإسلام، كما يبدو عند اكتماله هو نتيجة تأثيرات مختلفة تكوّن بعضها باعتباره تصورًا وفهمًا أخلاقيًّا للعالم، وباعتباره نظامًا قانونيًّا وعقيديًّا، حتى أخذ شكله السني في النهاية))(1)، وعلى منهج البحث التاريخي هذا، قد تم الحكم على الإسلام بأنه دين قد تغير وأدى مهمته في فترة زمنية محدودة، فعبارة "زيهر" هذه تحاول أن تجعل من الإسلام نظامًا، كسائر الأنظمة الدينية الوضعية، أو الحركات الإصلاحية الدينية التي تتطور وتتدرج من النقص إلى الكمال في العقائد والأحكام وغير ذلك، مما يتناقض مع ما بينه الله في كتابه العزيز، حيث أنزل على النبي ﷺ في آخر حياته ما يدل به على كمال الدين وتمامه فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾(2)، فلو تجرد "زيهر" وأعوانه، والتزموا الموضوعية، لانتهى بهم هذا المنهج إلى أن: الإسلام ليس ديانة تاريخية مؤقتة كما اليهودية والنصرانية، نشأ في بيئة عربية خالصة فلم يتأثر بالثقافات ولا العادات، ولا الوثنيات ولا الخرافات التي كانت تروج في بلاد المشرق والمغرب، بل إنه أنكرها وحاربها، وشنّع على المعتقدين والمعتنقين بها، كما فرض على أتباعه الاستقلالية الفكرية. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ "حِينَ أَتَاهُ عُمَرُ، فَقَالَ: إِنَّا نَسْمَعُ أَحَادِيثَ مِنْ يَهُودَ تُعْجِبُنَا، أَفَتَرَى أَنْ نَكْتُبَ بَعْضَهَا، فَقَالَ: "أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا إتباعي"(3)، وبهذا يثبت بطلان ما زعمه زيهر وأنصاره.

ثانيًا: المنهج العقلي الديكارتي.

(1) العقيدة والشريعة، جولد زيهر، د/ محمد يوسف، د/ علي حسن عبد القادر، ص10، ط2، د. ت، دار الكتب الحديثة، ـ مصر.
(2) سورة المائدة آية رقم (3).
(3) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الأدب، من كره النظر في كتب أهل الكتاب، حديث: (25881)، وهو حديث حسن.

بالبحث فيما كتبه المستشرقون عن الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، نجد أن المنهج العقلي "الديكارتي"(1)، هو أحد أبرز المناهج المستخدمة في دراسة قضايا الإصلاح والتجديد، نظرًا لما يحمله هذا المنهج من تشكيك في أصالة وقواعد العديد من العلوم والمعارف الإسلامية، ومع أنه أحد أبرز المذاهب الفكرية السائدة في الغرب(2)، والذي تتكون قواعده من نقاط أربعة: وهي: (ألا أقبل شيئًا ما على أنه حق، ما لم أعرف يقينًا أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب التهور والسبق إلى الحكم قبل النظر ـ ألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز ـ أن أقسم كل واحدة من المعضلات التي سأختبرها إلى أجزاء قدر المستطاع ـ أن أسير أفكاري بنظام بأبسط وأسهل معرفة ـ أن أعمل في كل الأحوال من الإحصاءات الكاملة والمراجعات الشاملة ما يجعلني على ثقة من أنني لم أغفل شيئًا)(3) ـ إلا أن "ديكارت" نفسه قد شكك في كثير من المعارف والحواس، حتى يصل إلى اليقين في المعرفة(4).

وقد يقال بأن هذا شك منهجي، يحرر الفيلسوف به عقله من المعارف والتصورات السابقة، توطئة للوصول إلى اليقين(5)، لكنَّ تأثر كثير من المستشرقين بهذا المنهج العقلي الشكي جعلهم يرون في استخدامه نوعًا من

(1) رينيه ديكارت (1596-1650م)، فيلسوف ورياضي فرنسي، يُعتبر في رأي كثير من الباحثين أبا الفلسفة الحديثة ومؤسسها، ومن أشهر اكتشافاته "الهندسة التحليلية"، اشتهر بكتابه "مقالة في المنهج"، 1697م، وفيه طرح كل المعتقدات السابقة، ليعاود البحث عن الحقيقة شاكًا في كل شيء إلا حقيقة واحدة وهي أنه يشك، ومن هنا كلمته المشهورة: (أنا أشك فإذن أنا أفكر، وأنا أفكر فإذن أنا موجود". أعلام المورد، ص196.

(2) تطور الفكر الغربي، رؤية نقدية، د/ على عبد المعطي، وآخرون، ص228، ط1، 1987م، مكتبة الفلاح ـ الكويت.

(3) مقال عن المنهج لديكارت، ترجمة محمود الخضيري، ص190-192، ط2، 1986م، دار الكاتب العربي ـ مصر. الله أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت، نظمي لوقا، ص133-135، رقم الإيداع بدار الكتب المصرية 3673، لسنة 1972م، مكتبة الأنجلو ـ مصر.

(4) مبادئ الفلسفة لديكارت، ترجمة عثمان أمين، ص18، ط1، 1999م، دار الثقافة، القاهرة ـ مصر.

(5) تطور الفكر الغربي، علي عبد المعطي، ص239، مرجع سابق.

التجديد الذي انساق إليه كثيرون من المستغربين في عالم اليوم، فأخضعوا كل ما يتعلق بالإسلام من مصادر فكرية وتشريعية كالقرآن الكريم والسنة النبوية، وغير ذلك من المسلمات اليقينية، والقضايا العقدية، والقضايا الغيبية، وسائر الأمور التوقيفية التي لا مجال للعقل أن يغير أو يبدل فيها، هذا فضلاً عن التشكيك في الكثير من الوقائع التاريخية، والتي انتهوا فيها بالافتراء على الإسلام ـ زورًا وبهتانًا ـ بعدم قدرته على مواكبة التغيرات الحضارية، والمستجدات العصرية، وزرعوا بذور الشك في أهم دعائم الحضارة الإسلامية، بعد أن بثوا اليأس والقنوط في روح أبناء العالم الإسلامي.

لقد ارتكزت دعائم العملية التجديدية للفكر الإسلامي عند المستشرقين على اتجاهين اثنين: (الاتجاه العقلي ـ الاتجاه الفلسفي)، إذ اعتبروهما من أهم المسالك الإصلاحية للخروج من أزمات التقليد والجمود، وسد الفجوة القائمة بين الدين والعلمانية، والضمان الأكيد لاستمرار العلمانية في البلاد الإسلامية، حيث صرح المستشرق الأمريكي "ويلفرد سميث"(1) قائلاً: ((فإذا صنعوا ذلك ـ ولم يستجيبوا للدعوة الإسلامية التي تسير كالأعمى بلا بصيرة ـ والتي لم تستطع أن تسد الفجوة بين الدين والعلمانية ـ إذا صنعوا ذلك فاتخذوا العقل أساسًا لتفسير الدين، فإن العلمانية تستقر في بلاد العالم الإسلامي وتزول الفجوة بينها وبين الدين))(2)، وبهذا يعمد المستشرقون إلى تدمير ثوابتنا الدينية، وعلومنا الإسلامية، بالاستخدام السلبي للمنهج العقلي، تحت خديعة الإصلاح والتجديد.

إنه لمن الغريب حقًا أن يدعونا هؤلاء المستشرقون لتطبيق تلك المناهج على تراثنا ومصادرنا الإسلامية، ثم هم لا يطبقونها على ميراثهم الديني والفكري؛ ليتيقنوا صدقها من كذبها، وصحيحها من سقيمها، والحق أنهم لو طبقوا هذا المنهج، لما وجدوا في تراثهم شيئًا يمكن التعويل عليه، فلم يعد أمامهم

---

(1) ويلفريد سميث (1916 – 2000م)، مستشرق كندي، حصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة برنستون وتخصص في اللغات الشرقية، وعمل أستاذًا لتاريخ ومقارنة الأديان بجامعة هارفارد، ودَّرس في العديد من الجامعات الكندية والبريطانية، من آثاره العلمية: العقيدة والتاريخ ، والإسلام الحديث في الهند، والإسلام في التاريخ الحديث ، وغير ذلك كثير. راجع: المستشرقون، ، ج3، ص183، 184.

(2) الإسلام في التاريخ الحديث، ويلفرد سميث، ص 35- 43، ط الدار القومية، رقم (166)، القاهرة ـ مصر.

إلا التشكيك في أصولنا وثوابتا تحت خديعة البحث النزيه والموضوعية المنهجية، وُحق لنا في هذا المقام أن نسألهم: هل يصح وضع العقيدة الدينية بجوانبها الغيبية على محك البحث والنظر العقلي؟ والعقل البشري ناقص محدود، فإذا أجابوا بنعم، فهل يقبلون أن نضع العقيدة النصرانية على نفس المحك؟ أم أن عقيدتهم من الغيبيات فلا تعرض على العقل، ومن ثمَّ على المسيحي أن يؤمن بها وهو مغمض العين؟!.

ثالثًا: المنهج الإسقاطي (التأثير والتأثر).

يعد المنهج الإسقاطي واحدًا من أبرز المناهج الاستشراقية المتبعة في دراسة العديد من القضايا الإسلامية، ومنها قضية الإصلاح والتجديد، حيث اتجه بعض المستشرقين إلى دراسة الإسلام، وفي أذهانهم صورة معينة لا توجد من الناحية الفعلية، لكنهم يسعون لإيجادها في أذهانهم، ويلتمسون لها الحلول والفروض مهما كانت منتفية، وإذا وجدت الظاهرة الفكرية بالفعل، ولكن لا محل لها من تصوراتهم فإنهم يحاولون نفيها مهما كان صحة وجودها، وقد أشار إليه شيخنا "عبد الحليم محمود"(1)، وأطلق عليه اسم "المنهج العكسي"، فقال: ((حيث يأتي الباحث إلى أوثق الأخبار، وأصدق الأنباء فيقلبها عمدًا إلى عكسها، وفقًا لتصور مسبق يسيطر على ذهنه خلال دراسته))(2).

---

(1) الشيخ عبد الحليم محمود: وُلد بمحافظة الشرقية (1910م)، ونشأ في أسرة كريمة مشهورة بالصلاح والتقوى، التحق بالأزهر، وحصل على الشهادة العالمية سنة (1932م)، ونجح في الحصول على درجة الدكتوراه من باريس سنة (1940م)، تولى أمانة مجمع البحوث الإسلامية، ثم تولى وزارة الأوقاف، وصدر قرار بتعيينه شيخًا للأزهر في (27 من مارس 1973م)، كانت حياة الشيخ جهادًا متصلاً وإحساسًا بالمسئولية التي يحملها على عاتقه، حتى لَقِي الله بعدها في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (15 ذي القعدة 1397هـ/ 17 أكتوبر 1978م). راجع: شيخ الإسلام عبد الحليم محمود سيرته وأعماله، د/ رؤوف شلبي، ط1، 1402هـ / 1982م، دار القلم - الكويت .

(2) أوربا والإسلام، د/ عبد الحليم محمود، ص96، د. ت، ط4، دار المعارف، القاهرة - مصر.

إن الإسقاط في علم الاستشراق يعني: ((إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في أعماق التاريخ، فيفسرونها – المستشرقين - في ضوء خبراتهم ومشاعرهم الخاصة، وما يعرفونه من واقع حياتهم ومجتمعاتهم))(1).

والواقع أن التطبيقات الاستشراقية لهذا المنهج أكثر من أن تحصى؛ إذ شملت كل القضايا التي تتعلق بالإسلام، بما في ذلك قضية الإصلاح والتجديد، ولنأخذ على ذلك مثالاً توضيحيًّا فيما يخص الرؤية الاستشراقية لمفهوم التجديد حول القرآن الكريم، والذي تعمد فيه "زيهر"، الادعاء بأن القرآن لا يمكنه أن يظل محفوظًا منذ زمن النبي ﷺ إلى الآن دون أن يكون قد تعرَّضَ لعمليات الإصلاح والتجديد التي منيت بها الكتب السابقة عليه، مستنكرًا خاصية الحفظ التي امتاز بها القرآن على الكتب الدينية الأخرى، كل ذلك لمجرد أن القرآن الكريم قد فضح تحريفات أهل الكتاب في العبث بكتبهم والتغييرات التي قام بها أهل الكتاب، فيقول: ((فلا يوجد كتاب تشريعي اعترفت به طائفة دينية اعترافاً عقدياً على أنه نصّ منـزل أو موحى به، يقدِّم نصُّه في أقدم عصور تداوله مثلَ هذه الصورة من الاضطراب وعدم الثبات كما نجد في القرآن))(2).

وعليه نقول لـ"زيهر" وأعوانه: إذا كان القرآن الكريم قد صرَّح في آياته باضطراب الكتب السابقة عليه، من الزيادة والنقصان بفعل البشر، فهل يعقل أن يتحدى ـ القرآن ـ أتباع الكتب الأخرى وغيرهم من بني البشر، وفيه ما فيه من الاضطراب الذي عابه على الكتب السابقة.

إن هذا الزعم الاستشراقي، يعكس لنا بصورة واضحة تأثيرات المنهج الاسقاطي على كتابات المستشرقين، في الدعوة إلى إصلاح النص القرآني وتجديده، ولعلنا نسأل "زيهر" عن سبب زعمه باضطراب النص القرآني، وتلميحاته المتكررة بتعرضه للإصلاح والتطوير والزيادة والنقصان، فهل امتداد العصور، وتعاقب القرون، كانت هي السبب الحقيقي في زعمه هذا ؟ أم

---

(1) المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ، د/ عبد العظيم الديب، ص99، 100، ط1، 1411هـ، مؤسسة الخليج، الدوحة ـ قطر.

(2) مذاهب التفسير الإسلامي، زيهر، ترجمة د/ عبد الحليم نجار، ص4 وما بعدها، 1374هـ/ 1955م، مطبعة السنة المحمدية ـ مصر.

أن المستشرق المتبحر في علوم الديانات وكتبها، قد تذكر الانتقادات اللاذعة التي وجهها القرآن الكريم للمحرفين الكلم عن مواضعه، كقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾(1)، وغيرها من الآيات، فأراد أن يوصم القرآن بما وصمت به كتبهم، من التحريف والتغيير والإصلاح والتطوير؟

إن ما حدث للتوراة والإنجيل من حذف وإضافات وتعديلات وتغييرات، لا يمكن تصور حدوثه لكتاب من الكتب البشرية، تجعلنا نعذر الرجل، فلعله أراد أن يدافع عن دينه وكتابه فاتهم القرآن، بما قد وجهه من انتقادات للكتب السابقة، ولعل السائل يسأل أين دلالة هذا المنهج في كلام "زيهر" السابق، وهنا نذهب سريعًا إلى مادة "التحريف" التي كتبها "جولد زيهر" في (دائرة المعارف الإسلامية)، حيث بدا تأثير هذا المنهج أكثر وضوحًا حين قال: ((والذي حدا بالمسلمين إلى الاشتغال بهذه الفكرة ـ اضطراب الكتب وتحريفها ـ هو ما جاء في القرآن من آيات اتهم فيه محمد اليهود بتغيير ما أنزل إليهم من كتب وبخاصة "التوراة"، مستعملاً التعبير "حرفوا"، وكان هذا الاتهام في الواقع هو الطريقة الوحيدة لإخراج محمد من مأزق خطير حين احتك في المدينة باليهود، فقد سعى منذ بدء رسالته إلى الحصول على تأييد أهل الكتاب يهودًا ونصارى، لاقتناعه بأن ما جاء في العهدين القديم والجديد يتفق وما دعا إليه مما أنزل عليه، ولكن عرضه للوقائع والشرائع التي جاءت في التوراة، انطوى على إدراك خاطئ، أثار عليه النقد والسخرية من جانب اليهود، فكان في نظرهم مبطلاً، ولو أن ما استعرضه من الآراء كان مناقضًا لما أنزل في الكتب المقدسة القديمة لانتفت دعواه، فيما يؤكد أنه صاحب رسالة إلهية، ولما كان اعتقاده أنه رسول موحى إليه قويًّا لا يتزعزع، لم يبق له غير مخرج واحد ذلك أن اليهود عمدوا آثمين إلى تحريف الكتاب، وأنه هو الذي أتى بالنص الصحيح))(2)، وكأن لسان حالهم: إذا كان القرآن قد اتهم التوراة بالتحريف، فليتحمل إذن، وهو

---

(1) سورة النساء، آية رقم (46).

(2) دائرة المعارف الإسلامية، ج9، ص235، 236، مادة "التحريف"، د. م، د. ت، طبعة الشعب، القاهرة ـ مصر.

ذاته ما أفصح عنه "بارت" حيث يقول: ((المسلمون هم الذين بدأوا بالهجوم فليتحملوا تبعة عملهم، وهم من عارض زيف النصارى...! وهم من فند كذب اليهود...! وهم من سفه عقيدة التثليث والصلب والقيامة وخلق المسيح))(1)، وهذا هو عين التجديد الاستشراقي المنشود في التعامل مع القرآن، فإذا كان النص التوراتي أو الإنجيلي، قد تعرضا للإصلاح، فإن القرآن ليس بأحسن منهما وهذا هو عين الإسقاط.

إن من يطلع على كتب المستشرقين ودراساتهم، يعلم علم اليقين، أن ما حاولوا وصم الإسلام به كذبًا وإفكًا، هو من قبيل الإسقاط المدروس، الإسقاط الواعي، الذي يكذب وهو يعلم أنه يكذب، فإسقاطاتهم هذه سببها الشعور بالنقص، بسبب عقلانية الإسلام وعلميته، . . فلا عجب، أن يقفوا في حيرة، وهم في غاية الاندهاش والإحباط، ، ثم تراهم يكذبون ويزعمون أن الإسلام دين جامد، يدعو إلى التخلف والتأخر، وينبذ التقدم والتحضر، إلى غير ذلك من الافتراءات، يقومون بذلك، لنقف موقف المتَّهم المدافع عن نفسه، الذي يسعى بكل ملكاته وإمكاناته لدفع ما وجه إليه، خشية الإدانة، وهو ما صرح به أحد التغريبيين قائلاً: ((يجب أن يدافع الإسلام عن نفسه أمام الغرب، ويجب أن نستعمل الأسلحة التي صاغتها أيدي الغرب أينما ولينا وجوهنا، وجدنا التعليم الغربي، والوسائل الغربية، وطرق الغرب في البحث، وعاداته الاجتماعية، والمناداة بالحرية، وتقرير المصير كما يفعل الغرب))(2).

وبهذا يتبين لنا أن المنهج الإسقاطي، لا يمكن أن يكون منهَّجًا علميًا يمكن الاعتماد عليه في معالجة قضية كبيرة، كقضية الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، بل هو منهج استشراقي، يعتمد على تلفيق التهم، ووصم الإسلام بكل السلبيات الفكرية التي اتسمت بها المسيحية واليهودية، لإحداث ذريعة تستلزم تطبيق كل الرؤى الإصلاحية التي تم تطبيقها على الفكر الغربي والكتب المقدسة لديهم.

---

(1) نحن والاستشراق، ضمن رسالة الجهاد، عمر لطفي العالم ، ص86-87.ع88، س1990م، .

(2) قائل هذه العبارة سيد أمير علي، من تلاميذ السيد أحمد خان الهندي وجهة الإسلام، جب، ص127، مرجع سابق.

المبحث الثالث
أهداف المستشرقين من دراسة قضية التجديد في الفكر الإسلامي

قبل الحديث عن تداعيات المفهوم الاستشراقي للتجديد على العالم الإسلامي، أود الإشارة إلى أهم الأهداف التي عمل الاستشراق على تبنيها من خلال مناهجه ووسائله المختلفة، والتي يمكن القول بأنها قد هيأت الظروف الفكرية والمجتمعية لقبول فكرة الإصلاح والتجديد الغربية، باعتبار أنها الملاذ الأخير لنهضة العرب والمسلمين، للخروج من حالة التخلف والجمود التي عاشها وما يزال المجتمع الإسلامي، إذ لم يعهد أن طوائف متباينة العقائد والثقافات والجنسيات، أطبقت كلمتها على دراسة دين لا تؤمن به كما فعل المستشرقون، حيث تناسوا اختلاف عقائدهم وبعد أوطانهم، وتباين ألسنتهم وأفكارهم، والتفوا جميعًا حول هدف واحد، سعوا فيه جاهدين لتحقيقه وتنفيذه؛ ألا وهو تدمير الإسلام، الذي انتشر في فترة زمنية وجيزة بين شعوب وأقطار كثيرة، فحملهم للوقوف على مناط قوة المسلمين وعوامل مجدهم، إذ كانوا يعيشون في ظلام دامس، وتخلف حضاري مطبق، ففتحوا أعينهم على تقدم المسلمين في العلوم والمعارف، وتفوقهم الحضاري، فدرسوا علوم الشرق، ونقلوها للغرب، ليحققوا نهضة بلادهم، محتفظين لأنفسهم بعقائدهم واتجاهاتهم نحو الإسلام، وفي ظل هذا الصعود الأوربي، أصيب العالم الإسلامي بحالة من الركود الفكري، والخلل الثقافي، والجمود الحضاري، والتشتت السياسي، والتفكك الاجتماعي، والانهيار الاقتصادي، ووجد المستشرقون الفرصة الذهبية، كي يصلوا إلى تحقيق أهدافهم الخبيثة والمتنوعة والتي أشير إلى أهمها على النحو التالي:

أولاً: إقناع الغرب بعدم صلاحية الإسلام كدين لهم، وتنصير المسلمين.

كان الاستشراق منذ بدايته ونشأته، يهدف للحيلولة بين الشعوب الغربية والدخول في الإسلام، مرتكزًا على تشويه محاسنه بالمطاعن والشبهات؛ لإقناع النصارى بعدم صلاحيته كدين لهم، وإقناع المسلمين بعدم صلاحيته لهم كنظام فكري وسياسي واقتصادي واجتماعي، فيحولوا بذلك دون انتشاره خارجيًّا، أو إحياء نظمه داخليًّا، ولأجل الوصول إلى ذلك، وجَّه المستشرقون مطاعنهم

بتركيز قوي حول الإسلام وفكره؛ لتشويه كل المفاهيم الإسلامية(1)، فزعموا أن الإسلام مصدر الجهل والانحطاط، والسر في تأخر المسلمين، وجمود فكرهم، وأنه العدو اللدود للعلم(2)، ومن ثمَّ لا مناص من إصلاح القرآن الكريم والسنة النبوية، بدعوى عدم صلاحيتهما لهذا الزمان، وعدم قدرتهما على مجاراة العصر ومتطلباته.

وتحت جناح الهوى والتعصب، زعم المستشرقون أن الإصلاح والتطور مرهون بالخروج من الإسلام، فقال "كرومر": ((إن الإسلام دين مناف للتجديد، ولم يكن صالحًا إلا للزمن والمحيط الذي وجد فيهما، وإن المسلمين لا يمكن أن يرقوا في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم، وينبذوا القرآن وأوامره ظهريًّا؛ لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب، ويُثَبِّتُ فيهم روح البغض للأغيار والشقاق وحب الانتقام، وإن الإسلام على الجملة هو العقبة الكئود في سبيل رقي الأمة الإسلامية))(3)، وقال آخر: ((إن انحطاط المسلمين يرجع إلى أسباب متصلة بالإسلام نفسه لعدم موافقته لروح التمدن))(4)، ويشاركهم في ذلك اليهودي المتعصب "زيهر" حيث يقول: ((إن الإسلام يكره التجديد، وكل بدعة في نظر الجماعة الإسلامية هي موضع للشك والشبهة، وظهورها مدعاة للأسى؛ لأنها تهدد وحدة الجماعة وتؤدي إلى إنهيار الشريعة))(5).

وبما أن الإسلام هو العقبة الكئود أمام رقي الأمة الإسلامية، والعدو اللدود لروح العصر والتجديد، فإن جماعة منهم – المستشرقين – صرحوا بضرورة التخلي عن الإسلام كشرط ضروريّ للانخراط في سلم الحضارة والمدنية والرقي، بل إنهم ما برحوا يؤكدون على ترابطية التقدم والقبول بالمسيحية، أو

(1) الاستشراق والدراسات الإسلامية، د/ عبد القهار داود، ص31، ط1، 1421هـ/ 2000م، دار الفرقان، عمان ـ الأردن.

(2) المصدر السابق، ص22، بتصرف واختصار.

(3) الإسلام روح المدنية أو (الدين الإسلامي واللورد)، مصطفى الغلاييني، ص13، مرجع سابق.

(4) المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، ص7، د. م، 1385هـ، 1965م، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ـ مصر.

(5) تاريخ الجنس البشري، جولد زيهر، ج3، ص545، بدون بيانات أخرى .

بعبارة أوضح بالتنصير، ومن ذلك ما ذكره "بالكراف"(1): ((متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب، يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرج في سلم الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه))(2)، فيما يصرح المستشرق "بالمر" الإنجليزي (3) فيقول: ((إن محمد عوضًا أن يحاكي أمير السلام، أصبح نبيًّا يحمل سيفه، والديانة التي أسسها نضجت عن نحو واسع في روح النبي واقتفت مثاله، وها هي قد أخفقت في تقديم ما تحتاج إليه الروح الإنسانية، وبالتالي فإن العالم الإسلامي، كما بقية العالم يحتاج إلى إعلان إنجيل المسيح)) (4).

إن المستشرقين الذين تولوا كِبَر الدَّعوة إلى ما أسموه "إصلاح الإسلام وتجديده" يعلمون قبل الآخرين، أنَّ ما يفعلونه ينقض الإسلام من قواعده، ولكي يصبح المسلم مجددًا عليه أن يتخلى عن ثوابت دينه، ليصبح علمانيّاً أو تقدُّميّاً، أو من أنصار التَّغريب أو الحداثة، أو من دعاة القوميّة، أو حتَّى أنْ يصبح ملحدًا، فهذه كُلّها أفضل عند المستشرقين والمنصرين من أنْ يظلّ المسلم على الإسلام.

(1) وليم جيفورد بالكراف: انضم إلى الرهبانية اليسوعية في لبنان، وطوف بالمشرق متنكرًا بزي طبيب سوري، ورحل إلى جزيرة العرب تاركًا مسوح الرهبان إلى السلك الدبلوماسي، من أهم آثاره رحلتي إلى أواسط وشرق الجزيرة العربية، راجع: المستشرقون، العقيقي، ج2، ص61.

(2) حاضر العالم الإسلامي، لوثروب ستودار، ترجمة عجاج نويهض، ص93، ط4، 1973م، دار الفكر، بيروت ـ لبنان.

(3) بالمر (1882-1840م): مستشرق إنجليزي، ومن عملاء الاستعمار البريطاني، عمل أستاذًا لكرسي اللغة العربية في إنجلترا، من آثاره: (التصوف الشرقي)، وله نشاط كبير في نقل المخطوطات العربية من الدول الإسلامية إلى أوربا. راجع: موسوعة المستشرقين، بدوي، ص67.

(4) The Sources Of Islam, John c. Blmair, p. 5, 1th Edition, 1925, Madras Allah Abad Rangoon, Colomo – India.

ثانيًا: إزالة العوائق أمام المخططات الاستعمارية الغربية.

إن الإسلام بالنسبة للغرب هو الصخرة الصماء، والعقبة الكأداء التي تعيق تحقيق مخططاتهم لنتائجها، والتي تتكسر عليها أمواج غزواتهم العاتية، فهم يدركون ذلك من خلال معرفتهم بالإسلام، ومن خلال الخبرة المكتسبة من احتكاكهم بالمسلمين في الحروب الصليبية التي استمرت قرابة قرنين من الزمان، أو في غيرها، فقد ثبت يقينًا بأنه لا أمل في نجاح حملاتهم، أو تحقيق أهدافهم، ما دام الإسلام في ميدان المعركة، رغم ما يمتلكونه من سلاح وعتاد، وخبرة تكنولوجية متقدمة، تم تسخيرها لإخراج الإسلام من ميدان المعركة، ومع ذلك فقد تأكدوا أن ذلك لن يحدث إلا في ظل عملية تغيير وتجديد واسعة النطاق، تُجرى في البناء العقدي والشرعي، ولما كان هذا أيضًا متعذرًا بغير غطاء الخداع والتضليل؛ ظهرت الدعوة إلى تجديد الخطاب الديني، التي تعني تحريف الدين، حيث أضحت تصريحات السياسيين الغربيين دليلاً قاطعًا على حتمية الموقف الغربي، ورغبته الجامحة في تجديد الخطاب الديني وإصلاحه، فقد وقف "غلادستون"(1) رئيس وزراء إنجلترا أواخر القرن التاسع عشر في مجلس العموم البريطاني، وقد أمسك بيمنه القرآن المجيد، وصاح في أعضاء البرلمان قائلاً: ((ما دام هذا القرآن موجودًا في أيدي المسلمين، فلن تستطيع أوروبا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان))(2)، وقال: ((لن تستقيم حالة الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويغطى به القرآن)) (3).

---

(1) وليم إيوارث غلادستون (29 ديسمبر 1908- 15 مايو 1898م) سياسي بريطاني، تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا أربع مرات، وهو الوحيد من بين رؤساء وزراء بريطانيا الذي رأس أربع حكومات، وعندما استلم رئاسة وزارته الأخيرة عان 1898م، كان عمره يزيد عن 82 سنة، وهو بذلك أكبر من تولى هذا المنصب، في عام 1882م (أثناء وزارته الثانية)، قامت بريطانيا بغزو مصر. راجع: معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، ص301، مرجع سابق.

(2) الحركات النسائية في الشرق وصلتها بالاستعمار ، محمد فهمي عبد الوهاب، ص7، ط1، 1979م، دار الاعتصام، القاهرة ـ مصر.

(3) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، ترجمة عمر فروخ، ص39، د. م، د. ت، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان.

وفي أهم التصريحات الإسرائيلية الرسمية لـ "بن غوريون"(1) داخل الكنيست الإسرائيلي قال: ((اصبروا فلن يكون هناك سلام لإسرائيل ما دام العرب تحت قيادة الرجعيين، إن الشرط الأساسي للسلام، هو أن يقوم في البلاد العربية حكومات ديمقراطية تقدمية متحررة من التقاليد الإسلامية))(2).

والواقع أن محاولات المستشرقين في هذا الإطار التجديدي، تدور كلها حول تسخير الإسلام للمصالح الاحتلالية، وذلك بإدماج المفاهيم الغربية العصرية في الإسلام، بحيث تبدو جزءًا أصيلاً من حقيقته، وبذلك تستمد منه قوة عند المسلمين المتمسكين بدينهم من ناحية، وتتفرق السبل بالمسلمين في تأويله وتفسيره وتطويره من ناحية أخرى، فبينما يواجه الشرق الشيوعي مقاومة الدين له بإنكار حقيقته، ووصفه بأنه خرافة، يواجه الغرب الصهيوني هذه المقاومة في العالم الإسلامي باستغلال الدين عن طريق تطويره، وإقحام مفاهيم غريبة عليه، (كالتطوير، والتحديث، والإصلاح الاجتماعي، وتجديد الخطاب الديني) لإخراج بعض حقائقه الأصيلة منه، ومن هنا لم يكن عفويًّا أن يكون قادة الغزو الصليبي الجديد المعروفين بكيدهم للإسلام والمسلمين، أمثال "دنلوب"(3)، كاهن الكنيسة التعليمية، وكرومر(4) الحاكم البريطاني الذي أذل

(1) دايفيد بن غورين (1886-1973م) بولندي المولد، نشأ في إسرائيل، وأصبح فيها سياسيًا صهيونيًا، وهو أول رئيس وزراء للكيان الإسرائيلي لفترتين (1948-1953) و (1955-1963م)، في عهد وزارته الثانية وقع العدوان الثلاثي (الإسرائيلي البريطاني الفرنسي) على مصر عام 1956م. راجع: معجم أعلام المورد، منير البعلبكي، ص112، مرجع سابق.

(2) محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص131، الموسم الثقافي، 1395-1396هـ، الرياض ـ السعودية.

(3) دانلوب: ولد في اسكتلندا 1860م وتخرج من القسم اللاهوتي في إحدى كلياتها، وجاء إلى مصر مبشرًا 1889م، وعين مدرسًا في مدرسة "سانت أندرو" التابعة للمجتمع التبشيري باسكتلندا، سعى لدى "كرومر" حتى عين مدرسًا للغة الإنجليزية في مدرسة المهندسخانة الخديوية، ويعد" دانلوب" واضع المخطط الأساسي لتغريب التعليم والتربية وإقصاء الإسلام عن برامج التعليم في المدرسة المصرية، باعتبار أنّ التعليم والتربية لها أكبر الأثر في مخطط التغريب والشعوبية والتبشير والاستشراق إن لم تكن هي جوهر هدف الاستعمار الأساسي.

(4)كرومر: هو القنصل البريطاني في مصر (1841 - 1917م) وأحد بناة الإمبراطورية البريطانية، أقام في مصر أربعة عشر عامًا حاكمًا مطلقًا، من آثاره مصر الحديثة (لندن

المصريين لمدة ربع قرن من الزمان، من أحرص الناس على صياغة جيل من المثقفين ثقافة أوربية، يقبل التعاون مع الاستعمار، ويخلفه في حمل راية التفرنج بعد رحيل جيوشه حتى يضمن قهر الإسلاميين، ويأمن بعث المسلمين من جديد بعد رحيله، كل ذلك تحت خديعة التجديد.

ثالثًا: العمل على تفتيت الإسلام وتقسيمه إلى إسلاميات متناحرة .

إمعاناً في النَّيل من الإسلام، وتشويهاً لمفهوم الإصلاح والتجديد، عمد جماعة من المستشرقين إلى إلصاق تصورات شتَّى وتصنيفات عدة للإسلام، حاولوا من خلالها أن يقوموا بعملية تقسيم الإسلام إلى إسلاميات متعددة متناحرة، يتعارض كل منها مع الآخر ويضاده.

كان أبرزهم المستشرق الكندي "ويلفريد سميث"، الذي أقام مسلكة ورؤيته في التطور والتجديد على نقاط ثلاث هي: (أن كل شيء يتغير ـ أن الدين يفهم من خلال تطبيقه وإن كان منحرفًا ـ أن الإسلام يخضع لهذين الأمرين)(1)، فالإسلام ـ حسب وجهة نظره ـ أنه شيء آخر، غير الذي مارسه المسلمون في مختلف العصور، فحقيقة الإسلام مثل أعلى، وحقيقة سماوية، قد يقترب منها الإنسان، ولكنه لا يستطيع أن يحققها تحقيقًا كاملاً، أما الذي مارسه المسلمون في مختلف العصور، فهو محاولات لتطبيق المثل الأعلى، بذل فيه الأفراد والجماعات على مر العصور جهد طاقتهم بقدر ما سمحت به ظروفهم، وبناء على هذه الأسس الثلاث فإن الدين يفهم من خلال تطبيقه عند معتنقيه، لا من خلال نصوصه المقدسة، ويقول في ذلك: ((إن كل دين عند تحليله إنما تتعدد أشكاله بعدد معتنقيه، إنها حقيقة تاريخية أساسية لا غنى عنها لإدراك الدين

1998م)، وهو من كبار دعاة التغريب والاستعماريين في العالم الإسلامي، وواحد من الذين وضعوا مخطط السياسة التي جرى عليها الاستعمار ولا يزال في محاولة القضاء على مقومات العالم الإسلامية والأمة العربية، وتمثل كتاباته في تقاريره وفي كتابه: (مصر الحديثة) خطة عمل كاملة وأيدلوجيا للقضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وتمزيق وحدة العالم الإسلامي ومقاومة القيم والمفاهيم العربية. راجع: المستشرقون، العقيقي، ج2، ص67، مرجع سابق.

(1) المستشرقون ومن تابعهم وموقفهم من ثبات الشريعة، عابد السفياني، ص46 ط2، 1412هـ/ 1992م، دار المنارة، جدة ـ السعودية.

وتاريخه))(1)، وتأسيسًا على ذلك، قام ـ المستشرق ـ بتقسيم الإسلام إلى ثلاث؛ فقال: ((هنالك ثلاثة أنواع من الإسلام: إسلام القرآن، وإسلام العلماء، وإسلام الجماهير، وهذا النَّوع الأخير إسلام خرافيّ، أسطوريّ، ضبابيّ، وتقديس أعمى، والنَّوع الثَّاني مستغرق تماماً في شريعة ما قبل العصر... لذلك تخلّصت منه "تركيا الكماليّة"، ولقد كان الوقت مواتياً لمحوه، ونحن بهذا نكون قد قدمنا الطَّريق أمام العالم الإسلاميّ، الإسلام الذي يحتاج إلى إصلاح، والذي وقفت منه تركيا في مقدمة الصُّفوف في العالم الإسلاميّ، في مجال الإصلاح الدِّينيّ))(2)، وتابع كلامه قائلاً: ((نريد أن نبني إسلامًا تركيًا يصبح مِلكًا لنا، وجزءًا من مجتمعنا الجديد، على نحو الكنيسة الإنجليكانية(3) التي هي مسيحية على نمط إنجليزي، فالإنجليكانية ليست إيطالية ولا روسية، ولكن أحدًا لا يستطيع اتهامها بأنها ليست مسيحية، فلماذا لا يكون لنا إسلامنا الخاص بنا؟))(4).

وفي إطار تعميقه لفكرة الإسلاميات المتعددة كتب يقول: ((إن مسلمي الهند الآن يكتبون فصلاً ذا أهمية أساسية في تاريخ الإسلام الحالي؛ لأنهم يقومون بمحاولة يتولون فيها دور القيادة والإنشاء لحياة جديدة، فالإسلام الذي سيبقى في قلوب مسلمي الهند سوف يكون إسلامهم الخاص، وسوف يكون شكله مختلفًا عن شكل الدين الذي يُطوره مسلمو باكستان اليوم))(5).

ومن خلال هذه الرؤية الاستشراقية تم تقسيم الإسلام إلى: "الإسلام الأصوليّ"، و"الإسلام التَّقليديّ"، و"الإسلام الرَّسميّ"، ومرّة أخرى يكتبون: "الإسلام الجماهيريّ"، "الإسلام الصُّوفيّ"، وثالثة يقولون: "الإسلام

(1) الإسلام في التّاريخ الحديث، ويلفرد سميث، ص14، مرجع سابق.

(2) المرجع السابق ص104،

(3) أنجليكانية: إتحاد كنائس مستقلة بذاتها نشأت تاريخيًّا عن كنيسة إنجلترا التي قامت في القرن السَّادس عشر على أثر انشقاق هنري الثامن، وما زالت على اتحاد تام بها، تضم الكنيسة الأنجليكانية 56 مليون شخص، تنتشر كنائسها بكثافة في الجزر البريطانية، والولايات المتحدة الأمريكية، ودول الكومنولْث. معجم الإيمان المسيحي، الأب صبحي، ص 74، مرجع سابق .

(4) الإسلام في التّاريخ الحديث، ويلفرد سميث، ص193، مرجع سابق.

(5) الإسلام في التّاريخ الحديث، ويلفرد سميث، ص258، مرجع سابق.

السِّياسيّ"، "الإسلام الاشتراكيّ"، وهكذا..(1)، ومنهم من يجعل الإسلام نوعين: هادئ ومسالم، والثَّاني: حركيّ عسكريّ(2).

لقد انتفض جماعة ممن ينتسبون إلى الإسلام، وكتبوا سلسلة من أخطر السلاسل الفكرية، جعلوها تحت اسم "الإسلام واحدًا ومتعددًا"، قسموا فيها الإسلام إلى إسلاميات متعددة ومتنوعة، كل منها يتعارض مع الآخر ويضاده، وجاءت على أجزائها على النحو التالي: (إسلام المتكلمين)(3)، و(إسلام الفلاسفة)(4)، و(إسلام الفقهاء)(5)، و(الإسلام الخارجي)(6)، و(الإسلام الأسود)(7)، و(إسلام المجددين)(8)، و(إسلام الصوفية)(9)، و(الإسلام السياسي)(10)، و(إسلام عصور الانحطاط)(11)، و(الإسلام السني)(12)،

---

(1) الأصوليّة في العالم العربيّ، ريتشارد كمجيان، (ترجمة عبد الوارث سعيد)، ص44-46، ط1، 1989م، دار الوفاء، المنصورة ـ مصر.

(2) كتاب الإسلام الحركيّ، باللُّغة الإنجليزيّة، للمستشرق جانسن G.H. Jansin.

(3) إسلام المتكلمين، محمد بو هلال، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(4) إسلام الفلاسفة، منجي لسود، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(5) إسلام الفقهاء، نادر حمامي، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(6) الإسلام الخارجي، ناجية الوريمي بوعجيلة، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(7) الإسلام الأسود، محمد شقرون، ط1، 2007م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(8) إسلام المجددين، محمد حمزة، ط1، 2007م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(9) إسلام المتصوفة، محمد بن الطيب، ط1، 2007م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(10) إسلام الساسة، سهام الميساوي، ط1، 2008م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(11) إسلام عصور الانحطاط، هالة الورتاني، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

(12) الإسلام السني، بسام الجميل، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.

و(الإسلام العربي)(1)، و(الإسلام الحركي)(2)، (إسلام ضد الإسلام)(3)، هذا بالإضافة إلى العديد من الإسلاميات الأخرى المتنوعة والمتعددة.

والحق أن هذه التقسيمات والتصنيفات لدين الإسلام من قبل هؤلاء المستشرقين وأتباعهم من رواد المدرسة التغريبية، ليس لها ما يدعمها من الأدلة المعتبرة؛ بل إنّ الواقع يكذبها، فالإسلام إنَّما هو دين واحد، وكتابه جاء مهيمناً لِمَا سبقه من وحي، ورسوله ﷺ خَتَم به الله تعالى جميع أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا الكتاب الخالد وسُنَّة الرَّسول الخاتم ﷺ هما مصدرا هذا الدِّين، فأمَّا ما يكون من تصوُّرات النَّاس أو نظراتهم للدِّين؛ فلا يُعَدُّ ديناً في الإسلام؛ وإنَّما محاولة واقعيّة لتطبيق تعاليم هذا الدِّين في حياتهم؛ محاولة تقترب أحياناً من مُثل الدِّين وقيمه، وتبتعد عنه تارة أخرى، وعليه فإنَّ ممارسة المسلم لدينه ممارسة سليمة كانت أو خاطئة، لا تُشكِّل في حدّ ذاتها ديناً، وإنَّما هو كسب هؤلاء وانفعالهم بالدّين، قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾(4) ، ولو نقبنا في آيات القرآن الكريم، وأحاديث النَّبيّ ﷺ، فليس فيها ما يشير من قريب أو بعيد إلى مثل التَّصنيفات التي (اخترعها) المستشرقون الحاقدون، وأتباعهم من أبناء المسلمين.

المبحث الرابع
تداعيات الرؤية الاستشراقية لمفهوم التجديد على العالم الإسلامي

(1) الإسلام العربي، عبد الله خلايفي، ط1، 2007م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.
(2) الإسلام الحركي، عبد الرحيم بوهاها، ط1، 2006م، دار الطليعة ورابطة العقلانيين العرب، بيروت ـ لبنان.
(3) إسلام ضد الإسلام، الصادق النهيوم، ط3، دار رياض الريس، سلسلة كتاب الناقد، دمشق ـ سوريا.
(4) سورة المائدة، آية رقم (3).

إن الحديث عن التجديد ليس بدعًا في ثقافتنا الإسلامية، ولا هو اختراع أحوجنا إليه ضعفنا المادي، أو المعنوي، أمام الغرب المسيطر المتكبر، أو طليعته المهيمنة اليوم على معظم بلاد الدنيا، بل إن حديث التجديد أصيل في ثقافتنا، قديم قدم عهد النبوة نفسه، على أن التجديد المقبول إسلاميًّا، هو الذي يمارسه المؤهلون للنظر في أصول الإسلام وفروعه، والملمون بما يواجه عصرهم من أفكار وآراء، ذلك لأن العلم الديني تخصص شديد الدقة والعمق، لا يحل لأحد أن يقول فيه قولاً؛ إلا إذا كان مؤهلاً لذلك تأهيلاً يقره المجتمع العلمي ويقبله.

ولما كانت الدعوة إلى التجديد الاستشراقي دعوة خبيثة تلقفتها أقلام المستغربين، فأنشؤوا بذلك مدرسة يمكن تعريفها وتوصيفها بأنها مدرسة التجديد المذموم"، ذلك لأنهم أرادوا تجديدًا كالذي أحدثته الحضارة الغربية في الدين المسيحي، من ناحيتي التنكّر للآخرة والمقدس، والتنكّر للغيب، غاضين النظر عن ملابسات الظروف والأحداث التي خاضتها أوربا حتى انتهت إلى ما هي عليه اليوم.

والحق أنهم ليسوا سواء بسواء، بل منهم الماكر الذي يكيد للإسلام، ويسعى لتدميره متخفيًّا بأقنعة الإسلام المستنير، ومنهم من تحوم حوله شبهات قوية في عمالته، والله أعلم بحاله، ومنهم الجاهل المضلل الذي قادته غفلته، أو شهوته، أو مآربه إلى ركوب موجة تطوير وإصلاح الإسلام، ومنهم العالم الفاضل الذي آلمه حال المسلمين، فظنَّ أنَّه لا سبيل لعودة الإسلام إلى واجهة الحياة إلا بالانحناء للعاصفة، والمصالحة مع الواقع المفروض على المسلمين، وأيًّا ما كان حال الواحد منهم، فقد شكلت أفكارهم ركامًا هائلاً من الشكوك، والشبهات حول الإسلام وفكره، أثارت نقعًا حجب الرؤية الحقيقية عن جمهور المسلمين، مما يستوجب على المخلصين من العلماء أن يقوموا بمراجعة شاملة، لما يغشى الساحة الإسلامية من تلك الأفكار والأطروحات.

جدير بالذكر: أن أنصار هذه المدرسة لا يرفضون الإسلام، ولا يستبعدونه ظاهرياً، وإنما يتعاملون مع النص الشرعي انطلاقاً مما يفرضه الواقع المعاصر من مستجدات ووقائع، فيصبح الواقع بإفرازاته هو المقياس وليس الشرع، فيقومون بإعمال هذا المنهج في توليد إسلام جديد، يهدفون منه إلى تحقيق الانسجام والتوافق مع الفكر الآخر، يُفَصِّلون فيه الشريعة على مقياس العصر،

بدعوى التجديد والاجتهاد في فقه النصوص، لكي تلاحق تطورات الزمن ومستجداته، ولا تكون متخلفة عنه، نظرًا لعدم إمكانية وفاء الشريعة بالمقتضيات المتغيرة للمجتمعات، حسب زعمهم، وخلاصة التجديد في تصور هذه المدرسة، يعني: إخضاع الدين لمتغيرات الواقع، وحياة الناس ووسائل الإنتاج والتوزيع، وعلاقات المجتمع، وغير ذلك، من مكونات الواقع التي لا تستقر على حال، فهي ما تقتضي أن يتغير الدين ويتطور ـ حسب زعمهم ـ ليوافق مستجدات الواقع، والنتيجة لذلك أن الدين يصبح ـ وفقاً لهذا الفهم ـ مطابقاً لأي واقع نريد، فهو دين الاشتراكية تارة، ودين الرأسمالية تارة أخرى، ودين الليبرالية، وهكذا يتم إخضاع ثوابت الدين لمتغيرات الواقع(1)، تحت غطاء (الإصلاح والتجديد)، لإضفاء صفة الشرعية على ما يقومون به، والحقيقة أن هذا لا يدخل تحت مسمى التجديد، بل هو تبديل وتغيير، تفرعت عنه هذه المدرسة إلى اتجاهين خطيرين، هما كالتالي:

أولاً: اتجاه الاستبدال والتغيير(2).

ورواد هذا الاتجاه هم دعاة التغريب، الذين درسوا في المعاهد والجامعات الغربية، وتتلمذوا على أيدي المنصرين والمستشرقين، فأعجبوا بهم أشد الإعجاب، وأخلصوا لهم غاية الإخلاص، ثم رجعوا إلى أوطانهم وتقلدوا أرفع المناصب العلمية، والسياسية، والثقافية . وكانوا أكثر غلوًا، وأشد وقاحة من أساتذتهم المستشرقين(3)، حيث قصدوا بالفكر التجديدي تغيير أصول الإسلام،

(1) تجديد المعرفة الإسلامية: المفهوم والآفاق، طه جابر العلواني، ع 16 ص: 212، مجلة دار الحديث الحسنية، أصل هذا الموضوع محاضرة ألقاها الكاتب بدار الحديث الحسنية في 15/ شعبان 1420 نوفمبر 1999، المحاضرة مسجلة على موقع الدكتور "العلواني" على شبكة المعلومات الدولية.

(2) هذا الاتجاه جعل التجديد مرادفاً للتغيير، بهدف القضاء على الماضي ورواسبه، فاعتبر أن الإسلام مجرد حلقة من حلقات اتصال السماء بالأرض ومرحلة في تطور الإنسان ذاته وهذا معناه قيام هذا الاتجاه على أساس مضمون مخالف تماماً لعملية التجديد ومصادرها، ومنطلقاتها، وأغراضها... بحيث يتبنى الرؤية الغربية كاملة باستبعاد الوحي كلية وإدخاله ضمن مقولات وتصورات غربية في محاولة متعسفة قاصرة تفتقد إلى الموضوعية في البحث والدراسة. راجع: مقال بعنوان: التجديد الفكري: قراءة في المفهوم، للحسن الحمروش، على مجلة الكلمة ورابطها http://www.kalema.net/v1/?rpt=672&art.

(3) دراسات في السيرة النبوية، محمد سرور زين العابدين، ص181، ط2، 1988م، دون ذكر بيانات دار النشر.

والأخذ بكلّ أسباب الحضارة الغربية خيرها وشرّها، سواء ما تعلق منها بالعلم، والاقتصاد، والسياسة، أو ما تعلق بأسلوب الحياة الروحية، والعقلية، واللغوية، وكذلك مبادئ الحياة العقدية، في الوقت الذي غفل فيه عامة المسلمين عن دينهم، وانشغلوا بحياتهم، مما جعل هجوم أصحاب هذا الاتجاه شرسًا ووقحًا، لا يراعون دين الأمة، ولا تراثها الأصيل بقليل ولا كثير؛ بل زعم بعضهم أن التجديد لا يكون إلا بالتقريب بين المسيحية والإسلام، ومن ثمَّ اتهموا النظام الإسلامي بالتخلف والجمود، وكانوا ـ بحق ـ أبرز أدوات المستعمر لتنفيذ سياسته في إدارة شؤون البلاد، حيث تعالت دعوات الكثيرين منهم في أنحاء العالم الإسلامي إلى تحديث الإسلامي بموجات التغريب العارمة(1).

هذا فيما أكد العديد من الباحثين، أن عملية التغريب لم تبدأ في أول الأمر إلا كعملية "تحديث"؛ إلا أن بعض مفكرينا قد سار بهذا التحديث أشواطًا بعيدة، حيث تحولت إلى تغريب واضح، مع استمرار البعض الآخر في السير على منهج التحديث، ومن ثمَّ قاموا بإسقاط النظريات والفلسفات الغربية الحديثة على الفكر الإسلامي ومصادره، فكانت النتيجة، هو أن الأحكام الإسلامية الثابتة، أحكام مرحلية، وأن القرآن لا يفرض حلولاً نهائية للمشاكل العملية التي تعترض الوجود الإنساني، وذلك نظرًا لما تعرفه المجتمعات الإنسانية من تطور مستمر، وتغيير دائم في البنى الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، والفكرية . . إلخ، لذلك يرى أصحاب هذا الاتجاه شمولية التغيير والتطوير، الذي ينال العقائد، والشرائع، والمعاملات.

لقد كان من أعظم جرائم أصحاب هذا الاتجاه: عملهم المشبوه في تكييف النصوص الدينية حسب ورودها ونزولها ـ متأثرين في ذلك بأفكار المستشرقين، الذين لا يرون فرقاً بين النص الشرعي وأي نص بشري ـ حيث يحاولون إخضاع النصوص الشرعية لما يخضع له غيرها من النسبية والظرفية، وعدم الاستمرارية المطلقة الأبدية، وبالتالي عدم الصلاحية، في أحكامه وتوجيهاته، حتى أصبحنا ـ اليوم ـ نلحظ رواجاً كبيرًا لدى من يرومون المروق من مبدأ الاستمرارية في الهدي الديني، إذ جنحوا إلى تخصيص الكثير من أحكام الوحي بأسبابها الظرفية، وجعلوا ذلك مبرر الاستعاضة عنها بأحكام

(1) انظر: معوقات تطبيق الشريعة، مناع القطان، ص29، ط1، 1991م، مكتبة وهبة، القاهرة ـ مصر.

وضعية، وكان من البيّن جدًا أن هذه النزعة وحدها كفيلة، بأن تهدم أصول الدين، حيث تنتهي به إلى وضع من التاريخية ينقطع به عن الحياة ويؤول به إلى العطالة الكاملة، كما تكمن مشكلة هؤلاء في تغافلهم عن طبيعتنا وظروفنا التي تختلف عن طبيعة وظروف المجتمعات الغربية، فتجارب الشعوب لا يمكن استنساخها، ولا يمكن لشعب أن يأخذ ويترك ويستفيد بما يلائم أوضاعه وثقافته، ورغم البديهة والبساطة في تلك الحقيقة؛ إلا أن انبهار نخبتنا بالغرب أعماهم تمامًا عن كل الحقائق، وكل البديهيات، فلم يجدوا غضاضة في الدخول إلى عالم الإصلاح والتجديد، بغرض التبديل والتغيير في الثوابت والأصول، بما يتوافق مع الأهواء، ويساير الواقع وتوجهات الأعداء؛ ليقبلوا بهم طلابًا في مدارسهم وجامعاتهم.

ثانيًا: اتجاه التوفيق والتلفيق:

بعد صراع طويل وعنيف بين أصحاب اتجاه الاستبدال والكثير من العلماء المخلصين من أبناء الإسلام، الذين قاموا بكشف حقائقهم ودسائسهم، واستطاعوا أن يصدوا الناس عن أفكارهم، ويردوا على شبهاتهم، وينتقدوا دعواتهم التخريبية، فانفض الناس عنهم، وانصرفوا عن دعوتهم، يفكرون ويبحثون عن طريق آخر يسلكوه، فانفتقت عقولهم الإجرامية تدعو إلى التغيير عبر طريق آخر يطلق عليه "التلفيق والتوفيق"، والتكييف وفق الإطار المرجعي الغربي، فعمدوا إلى تطوير الإسلام لمسايرة العصر ومواكبة التطور(1)، ورأوا أن صالح الثقافة والمجتمعات الإسلامية، يكمن في هذا التطوير، وموافقة الأمر الواقع في الحياة العصرية، وبدأ هذا الاتجاه بالشعور بالحاجة إلى مواجهة القضايا الجديدة باستنباط أحكام شرعية توافقها، ثم انتهى الأمر إلى الدعوة لمهاجمة التقليد، والمطالبة بالنظر في التشريع الإسلامي كلّه من دون قيد، فتسببت دعوتهم تلك، في فتح الباب على مصراعيه للقادرين وغير القادرين، ولأصحاب الورع وأصحاب الأهواء، وظهرت الآراء التي تجعل الإسلام داخلاً في هذا المذهب، أو ذاك من المذاهب السياسية، والاجتماعية التي ابتدعتها

(1) الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية، د/ مفرج القوسي، ص223، ط1، 2002م، دار الفضيلة، الرياض ـ السعودية.

الحضارة الغربية الحديثة، وتحولت بذلك دعوة التطوير والاجتهاد في آخر الأمر، إلى تطوير الشريعة الإسلامية، والتخلي عن كثير من الأسس، بحيث تتطابق مع الحضارة الغربية، أو تقترب منها.

ويعتمد هؤلاء في دعوتهم إلى جزئية الإصلاح والتطوير، بمعنى أنهم يستثنون العقائد من قابلية التطوير والتغيير، ويدعون إلى التغيير في كل ما عداها بما في ذلك العبادات؛ لأنهم يرون أن الأحكام الثابتة هي أحكام المعتقدات فقط، أما العبادات والمعاملات فهي خاضعة للتغيير والتبديل، ويمثلون على ذلك بأن الصلاة تختلف في شريعة محمد ﷺ، عن شريعة نبي الله "إبراهيم"، و"نوح" عليهما السلام، فينبغي ـ كما يزعمون ـ أن تختلف في القرن العشرين عنها في حياة الرسول ﷺ، وهكذا يقال في كل التكاليف(1)، كما يرون أن ميدان الحياة قد تركه الشارع للإنسان، يتصرف فيه بحسب ما تقتضيه مصلحته وظرفه، فيرى أحدهم: أن البشرية لم تعد في حاجة إلى قيادتها في الأرض باسم السماء، لأنها قد بلغت سن الرشد، وآن لها أن تباشر شؤونها بنفسها، ويسطر ذلك كتابه الأسس القرآنية للتقدم فيقول: ((تبقى بعد ذلك عملية تحرير العقل البشري من السلطة الدينية المتمثلة في نظام النبوة أمرًا ملحًا))(2)، هذا فيما يرى آخر: ((أن نصوص القرآن والسنة بمسائل العقيدة والعبادة هي التي لا تقبل التعديل، أما غيرها في أي ناحية من نواحي التشريع فتخضع للتعديل والتغيير والإضافة والحذف))(3)، ويقرر أن الأحكام التشريعية لا يقصد بها الدوام والثبات؛ بل هي مؤقتة بظروفها، وصالحة لبيئاتها وأماكن نزولها فيقول: ((إن كل التشريعات التي تخص أمور المعاش والعلاقات الاجتماعية بين الناس، والتي يحتويها الكتاب والسنة لم يقصد بها الدوام وعدم التغيير، ولم تكن إلا حلولاً مؤقتة احتاج إليها المسلمون الأوائل، كانت صالحة وكافية لزمانهم، وليست بالضرورة ملزمة لنا))(4)، ولا شك أن هذا افتراء على الله ورسوله ﷺ، إذ إن من مسلمات العقيدة الإسلامية، ومن بدهيات التصور الإسلامي، أن

(1) أدعياء التجدد مبددون لا مجددون، علي العماري، ص15، ط1، 1994م، مكتبة وهبة، القاهرة ـ مصر.

(2) الأسس القرآنية للتقدم، محمد أحمد خلف، ص41، كتاب الأهالي العدد (2)، 1984م، طبعة جريدة الأهالي، القاهرة ـ مصر،

(3) نحو ثورة في الفكر الديني، مجلة الآداب، محمد النويهي، ص31، عدد مايو، 1970م، بيروت ـ لبنان.

(4) المرجع السابق، ص107.

الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع الإلهية، وهي دائمة وخالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأن كل أمر أو نهي شرعي، هو أمانة في عنق كل مسلم من غير فرق بين مسلم عاصر النبي ﷺ أو مسلم جاء بعده، فيقول الإمام "الزركشي": ((ومما عرف بالضرورة من دينه ﷺ، أن كل حكم تعلق بأهل زمانه، فهو شامل لجميع الأمة إلى يوم القيامة))(1).

وبناء على ما سبق: فمهما ادَّعى رواد هذه المدرسة بكل اتجاهاتها، أن ما يقومون به تجديداً ! ! لن يغير من التصور أي شيء؛ لأن عمل هذا الصنف من المثقفين لا يعدو أن يكون منافياً للحقيقة، فهؤلاء هم المجددون المزيفون، إذ التجديد لا بد أن يكون من داخل إطاره، وبأدواته وآلياته المشروعة، وعن طريق المستجمعين لشروطه، ومن هنا كان اختلافنا مع المستشرقين والمستغربين، وإن كان أمرهما واحدًا، فإن لهم أغراضًا لا مناص أن تجعل لهم عقولاً بحسبها وعلى مقاديرها في المصلحة والمفسدة، وهم صُور من ضمائرهم، فليس في الملحد يكون ضمير مؤمن، ولا في الفاجر ضمير تقي، ولا في المستهتر ضمير ورع، ومن ثمَّ وجب أن تحذرهم الأمة.

يقول الشيخ "محمد الغزالي": ((العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام والحدود التي استبانت معالمها في الكتاب والسنة هي هداية الله لخلقه، وكل محاولة للبتر، أو الإضافة أو التحوير فهي خروج على الإسلام، وافتراء على الله، وافتيات على الناس، وتهجم على الحق بغير علم، وليس يقبل من أحد البتة أن يقول: هذا نص فات أوانه، أو هذا حكم انقضت أيامه، أو أن الحياة بلغت طورًا يقضي بترك كذا وكذا من الأحكام، أو التجاوز عن كذا من الشرائع فهذه كلها محاولات لهدم الإسلام وإعادة الجاهلية))(2)، وعليه فلا يمكن مطلقًا نعت ما يقومون به بوصف التجديد؛ لأن التجديد يحمل معنى الأصالة التي نريدها في وسائلنا الإعلامية، ومناهجنا التعليمية والتربوية، ونظمنا الاقتصادية؛ ليحفظ لنا الأصل والجوهر، ويحقق في الوقت نفسه النمو والتطور، والمعاصرة والإبداع.

ثالثًا: خطورة المدرسة الإصلاحية المذمومة:

---

(1) البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي، تح: عبد القادر العاني، ج3، ص184، ط2، 1992م، دار الصفوة، الكويت.

(2) كيف نفهم الإسلام، محمد الغزالي، ص119، 120، ط3، 2005م، دار نهضة مصر، القاهرة ـ مصر.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أن خطورة هذه المدرسة، خاصة تيار التلفيق والتوفيق وفق الإطار المرجعي الغربي، والتي تبدو في ممارسة عملية التغريب وفق لغة تدعي قراءتها للتراث، وتدعي فهمه والوعي بسياقه التاريخي، لتهدف إلى إقحام وتطبيق المناهج الغربية الحديثة على الإسلام، والدراسات الإسلامية ذات البعد الغيبي التي لا تستقيم معها، كما أنها تهمل في الوقت نفسه أصولاً منهجية استقرت في التراث الفكري الإسلامي، مثل علم أصول الفقه، وأصول آداب البحث والمناظرة...(1).

وتبدو خطورة هذه الاتجاهات على الإسلام والمجتمع من وجهين:

1 ـ الوجه الأول: إفساد الإسلام وذلك بتشويش قِيَمِه ومفاهيمه الأصيلة بإدخال الزيف على الصحيح، وإثبات الغريب الدخيل على الإسلام وتأكيده.

2 ـ الوجه الآخر: أن هذا التطوير سينتهي بالمسلمين إلى الفرقة التي لا اجتماع بعدها، لأنّ كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهبًا يخالف غيرها من الجماعات، ومع توالي الأيام نجد ثقافة إسلامية تركية وهندية وإيرانية وعربية، وهكذا تصبح الأمة الإسلامية أشلاء ممزقة.

الخاتمة

وإلى هنا أكملت هذه الدراسة، وأتممت هذا البحث، وقد خرجت منه بنتائج مهمة، وعدة توصيات .

أولاً: أهم النتائج.

تبلور مفهوم التجديد لدى المستشرقين من خلال ما عايشوه من تناقضات فلسفية، وأزمات كنسية، وصراعات عقدية شكَّلَتْ الصورة العامة لقضية التجديد لدى الحركات الإصلاحية الغربية المعاصرة.

إن التجديد الإسلامي الذي يقصده المستشرقون هو ذلك التغيير والتبديل الذي يعتمد على المناهج الغربية النقدية، بحيث لا يسلم من هذا التغيير آية قرآنية أو حديث نبوي، أو عقيدة دينية.

التجديد المقبول إسلاميًا هو الذي يمارسه المؤهلون للنظر في أصول الإسلام وفروعه، والملمون بما يواجه عصرهم من أفكار وآراء، لسد الحاجات، وإعادة

---

(1) إصلاح الفكر الإسلامي مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، ص: 149-150، د. م، 1417هـ/ 1996م، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة ـ مصر.

الاكتشاف والاستنباط من جديد، وتحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة.

تنوعت مناهج المستشرقين في معالجة قضية الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي، ما بين "المنهج النقدي التاريخي" و "المنهج العقلي الشكي" و "المنهج الإسقاطي" وغيرها، بما يُمَكِّنُهم من تحقيق أهدافهم، والوصول إلى أغراضهم، وإن تنازلوا في كثير من الأحيان عن الموضوعية البحثية.

لقد تناول المستشرقون قضية التجديد تحديدًا في العديد من دراساتهم، لتهيئة الظروف الفكرية والمجتمعية للقبول بالرؤية الغربية، باعتبار أنها الملاذ الأخير لنهضة المسلمين.

لقد تنوعت أهداف المستشرقين إزاء دراستهم لقضية تجديد الفكر الإسلامي، ومنها: إقناع الغرب بعدم صلاحية الإسلام كدين لهم ، والعمل على إزالة العوائق أمام المخططات الاستعمارية الغربية باسم الحداثة والتمدين، والمساهمة في تفتيت الإسلام وتقسيمه إلى إسلاميات متناحرة.

كان من أهم تداعيات مفهوم التجديد الاستشراقي على العالم الإسلامي هو ظهور مدرسة التجديد المذموم التي تهدف إلى توليد إسلام جديد، يمكن من خلاله تحقيق الانسجام والتوافق مع الفكر الغربي، وذلك عبر اتجاهين الأول: اتجاه الاستبدال والتغيير: ويهدف أصحابه إلى تغيير أصول الإسلام صراحة، والثاني: اتجاه التلفيق والتوفيق: ويهدف أصحابه إلى التغيير الجزئي (ما دون العقائد)، عن طريق التوفيق والتكييف وفق الإطار المرجعي الغربي.

ثانيًا: أهم التوصيات.

إنشاء لجان ترجمة إسلامية في كافة الجامعات الإسلامية، مهمتها ترجمة الأبحاث والدراسات الاستشراقية، ثم تعرض هذه الترجمة على العلماء والمختصين كل حسب تخصصه؛ لتسجيل آرائهم (موافقة أو معارضة)، وبيان موقف الإسلام منها.

أقترح إنشاء علم "الاستغراب" (دراسة الغرب)، في جامعات العالم العربي والإسلامي، بغية استيعاب الغرب واحتواء توجهاته وميوله الفكرية.

إقامة الدورات والندوات المستمرة لتوعية المسلمين بمخاطر الاستشراق وأغراضه.

التركيز على وسائل الإعلام بكل أنواعها وأشكالها باعتبار أنها السلاح القوي الذي يعين على صد التهم الموجهة إلى الإسلام، وعرض الحقائق الإسلامية

صحيحة نقية إلى كل البشر، بكافة اللغات التي يتم بها البلاغ وتحقيق الشهادة على الناس كما أمر الله.

بناء على قاعدة أن الهجوم هو خير وسيلة للدفاع، فإننا نوصي باستباقية المراكز البحثية المعنية بالفكر والعلوم الاجتماعية والدراسات الإنسانية، بتحليل وتمحيص المناهج الغربية الحديثة، دون التسليم لها بما فيها من عوار علمي يفقدها المنهجية العلمية، مع ضرورة عرضها على ما تضمنه تراثنا الإسلامي، ومناقشة ذلك مناقشة علمية، فما كان موافقًا لتراثنا الإسلامي قبلناه وإلا رددناه.

تشجيع إقامة المؤتمرات، والندوات العلمية الدولية حول مفهوم الإصلاح والتجديد في الفكر الإسلامي داخل العالم الإسلامي وخارجه للتعريف بحقيقة التجديد ومجالاته وضوابطه وشروطه، شريطة أن يتم ذلك بانتقاء العلماء الربانيين من غير ذوي التوجهات المخالفة للفهم الصحيح، وذلك بالاتفاق والتنسيق مع الجامعات الإسلامية والعالمية ومن خلال الاتفاقيات العلمية المعترف بها بين الجامعات، وكذلك بين مراكز البحوث المتخصصة في الدراسات الإسلامية.

وختاماً: فإن يكن قد وفقني الله فأسأل الله أن يتقبله وأن يجعله لي ستارًا من النار، وإن كنت قد أخطأت فأسأل الله أن يغفر لي ويتجاوز عن خطئي، وأسأله أن يعطيني أجر المجتهد، والحمد لله في الأولى والآخرة، وله الحكم، وإليه يرجع الأمر كله وهو حسبنا ونعم الوكيل.